مهمات الاشتراكيين الديمقراطيين الروس

الكراسة : مُهمَّات الاشتراكيّين الديمقراطيين الرُّوس

المؤلف : فلاديمير أيليتش أوليانوف – لينين.

في المنفى بسيبيريا في أواخر عام 1897

تقديم :

بعد أن قضى لينين 16 شهرا في زنزانة سجنه، نفي إلى قرية شوشنسكويه في سيبيريا، و كالعادة، و رغم وجوده في منطقة نائية، لم يتوقف لينين عن نشاطه الوقاد. لقد قرأ العديد من الكتب و الملفات، و استعمل المراسلة على نطاق واسع. و في غضون السنوات الثلاث، التي قضاها في المنفى، قام بتأليف أكثر من 13 كتابا و كراسات، بما في ذلك "تطور الرأسمالية في روسيا"، "مهام و واجبات الاشتراكيين الديموقراطيين الروس"، "مشروع برنامج حزبنا"، "تعليق على ميزة الرومنطيقية الاقتصادية" .

في مقدمة الطبعة الثانية لكراسة "مهام الاشتراكيين الديموقراطيين الروس" (غشت 1906)، و قد صدرت الكراسة لأول مرة في دجنبر 1902، و قامت بنشرها "عصبة الاشتراكية الديموقراطية الروسية الثورية بالخارج".

أما تاريخ كتابتها من طرف لينين فهو سنة 1897، و تنتمي الكراسة إلى المرحلة الثانية في تاريخ الاشتراكية الديموقراطية الروسية، حسب تصنيف "ما العمل؟"، حيث حدد لينين تلك المراحل :

المرحلة الأولى : من 1884إلى 1894

المرحلة الثانية : من 1894 إلى 1898

المرحلة الثالثة : من 1897 إلى 1898 حيث سيطرة "الاقتصادوية" .

و يقول لينين في مقدمته :

في المرحلة الثانية لم نر، بخلاف المرحلة الثالثة اختلافات بين الاشتراكيين الديموقراطيين فيما بينهم، فقد كانت الاشتراكية الديموقراطية إيديولوجيا، واحدة، و حينها، كانت كذلك محاولة لتحقيق الوحدة العملية في مجال التنظيم (بناء الحزب العمالي الاشتراكي الديموقراطي لروسيا). لقد كان اهتمام الاشتراكيين الديموقراطيين الروس آنذاك منصبا بشكل رئيسي، ليس على توضيح و حل هذه المشاكل أو أخرى الداخلية للحزب، كما هو الحال في المرحلة الثالثة، بل خوض نضال إيديولوجي ضد خصوم الديموقراطية الاشتراكية من جهة، و تطوير النشاط العملي للحزب، و ممارسة الاشتراكيين الديموقراطيين، التي لم تظهر في مرحلة الاقتصادوية .

↔ هذا هو السياق العام للكراسة، و للمرحلة، التي كانت تنخرط فيها، حيث كان الصراع يخاض ضد الخصوم الإيديولوجيين للاشتراكية الديموقراطية، و لذلك لا نجد صعوبة في الربط بين النضال السياسي و الاقتصادي.

إن الكراسة موجهة إلى أعضاء "نارودويانا فوليا" و " نارودييويا برافو"، و تحاول إعطاءهم شرحا للمبادئ، التي يمكن أن تزيل سوء الفهم أو التحفظ تجاه الحركة الجديدة (أي اتجاه الاشتراكية الديموقراطية). و يقارن لينين المرحلة الثانية و مرحلة ما بعد نهاية الاقتصادوية، حيث كان الفارق بين النظرية و البرنامج و المهام التكتيكية و الممارسة تسير نحو الاندثار، في نفس الوقت الذي كانت فيه الاقتصادوية تعيش آخر أيامها، و لذلك أصبحت المرحلة تشبه المرحلة الثانية، مما جعل الدعوة إلى تعميق و توسيع النشاط العملي لأن الشروط النظرية للعمل كانت قد تمت بلورتها. و قد كرس لينين مجهودا نظريا كبيرا في هذا المجال من خلال كراسة "ما العمل؟" .

منذ المرحلة الثانية تطورت التيارات الشعبوية، و انتقلت إلى تسمية جديدة "الاشتراكيون الثوريون" بعدما راجعت مجموعة من الأطروحات القديمة، لكنها وقفت في منتصف الطريق دون أن تستطيع الانتقال إلى الاشتراكية العلمية، الاشتراكية الثورية الوحيدة، و ظلت تضع على نفس المستوى العامل و الفلاح و المثقف، و نشر الكراسة من جديد سنة 1906، كان هدفه المساعدة على التوضيح بالنسبة لهذه التيارات كما كان في المرحلة الثانية.

مهمَّات الاشتراكيّين الديمقراطيين الرُّوس

ـ ملخص ـ

حمو خالد

لقد قسم لينين هذه الكراسة إلى المراحل التالية :

* **المرحلة الأخيرة** منها تعود إلى مجال الحاضر، وجزئياً إلى مجال المستقبل،

* **المرحلة الثَّالثة** مُسماة بمرحلة سيطرة (أو، على الأقل، الانتشار الواسع) التيار الاقتصاديّ، ابتداء من 1897- 1898،

* **المرحلة الثَّانية** تشمل سنوات 1894- 1898،

* **المرحلة الأولى** سنوات 1884- 1894.

نحن لا نرى في المرحلة الثَّانية، على نقيض المرحلة الثَّالثة، أي خلافات في أوساط الاشتراكيّين – الدِّيمقراطيّين أنفسهم. **فقد كانت الاشتراكيّة – الدِّيمقراطيّة موحدة فكرياً آنذاك، وآنذاك أيضاً قامت محاولة لبلوغ الوحدة كذلك عملياً، تنظيمياً (تشكيل حزب العمال الاشتراكيّ – الدِّيمقراطيّ الرُّوسي).** وآنذاك كان انتباه الاشتراكيّين – الدِّيمقراطيّين الرئيسي موجهاً لا نحو توضيح وحلّ هذه أو تلك من القضايا الحزبية الداخلية (كما في المرحلة الثَّالثة)، بل **نحو الصراع الفكري ضد خصوم الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، من جهة، ونحو تطوير النَّشاط الحزبي العمليّ من جهة أخرى.**

وبين نظرية الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين ونشاطهم العمليّ، لم يكن ثمة ذلك التناقض الذي كان قائماً في عهد الاقتصادويّة.

إن هذه الكراسة تعكس بالضبط **خصائص الوضع آنذاك ومهمات الاشتراكيّة – الدِّيمقراطيّة حينها.** والكراسة تدعو **إلى تعميق النَّشاط العمليّ وتوسيعه** لأنه لا يرى أي "عقبات" تواجه ذلك من جراء غموض نظرات ومبادئ ونظريات عامة، **ولا يرى المصاعب** (التي لم يكن لها وجود آنذاك) **في الجمع بين النِّضال السِّياسيّ والنِّضال**

الاقتصاديّ. وتتوجه الكراسة إلى **خصوم الاشتراكيّة – الدِّيمقراطيّة** بتوضيحاتها المبدئية، وإلى **النارودوفوليين[1] والنارودوبرافيين[2]**، ساعياً إلى تبديد الآراء الخاطئة والأوهام التي تحملهم على الوقوف على هامش الحركة الجديدة.

وفي الوقت الحاضر، إذ توشك أن تنتهي مرحلة الاقتصادويّة حسب كل احتمال، يبدو موقف الاشتراكيّين – الدِّيمقراطيّين من جديد مماثلاً للموقف الذي كان منذ خمسة أعوام. **طبيعي أن المهام التي تواجهنا الآن (كما يقول لينين) أعقد بما لا يُقاس نظراً لنمو الحركة نمواً عملاقاً في هذه الحقبة من الزمن،** ولكن خصائص الوقت الحاضر الأساسيَّة تكرر، على أساس أوسع وعلى مقياس أكبر، خصائص المرحلة الثَّانية. وأن التنافر بين نظريتنا وبرنامجنا ومهامنا التاكتيكيَّة ونشاطنا العمليّ يزول مع زوال الاقتصادويّة. ونحن من جديد نستطيع ويجب علينا أن ندعو بجرأة إلى تعميق وتوسيع النَّشاط العمليّ، لأن توضيح المقدمات النظرية لهذا النَّشاط قد تحقق إلى حد كبير. ومن جديد يجب علينا أن نولي انتباهاً خاصاً إلى الميول غير الاشتراكيّة – الدِّيمقراطيّة السرية في روسيا إذ تبدو أمامنا من جديد ومن حيث الجوهر، نفس الميول التي تجلت في النصف الأول من السنوات التسعين من القرن الماضي، ولكنها الآن أكثر تطوراً بكثير، أكثر تكوناً بكثير، أكثر "نضجاً" بكثير.

---

1. **النارودوفوليون**، أعضاء حزب (نارودنايا فوليا) (إرادة الشعب) وهو حزب ثوري غير شرعي، تأسس عام 1879. واستهدف الإطاحة بالأوتوقراطية والظفر بالحرية السِّياسيّة في روسيا. وقد لجأ النارودفوليون في كفاحهم ضد القيصريَّة إلى الإرهاب الفردي، ونظموا جملة من الاعتداءات على كبار الموظفين القيصريين، واغتالوا في أول آذار/ مارس 1881 القيصر ألكسندر الثاني. وقد اعتقد أعضاء "نارودنايافوليا" خطأ أن فريقاً غير كبير من الثَّوريّين يستطيع، دون الاعتماد على الحركة الثَّوريّة الجماهيرية، أن يستولي على السُّلطة ويقضي على الأوتوقراطية.
بعد اغتيال ألكسندر الثاني، واجهت الحكومة القيصريَّة "نارودنايا فوليا" بأعمال القمع الضارية. ولكن محاولات قامت إثر ذلك غير مرة لبعث المنظمة. ففي عام 1891 ظهرت "فرقة النارودنافوليين" التي حاولت أن تقوم بالنِّضال الثَّوريّ بروح "نارودنايا فوليا" في السبعينيات والثمانينيات. دامت "فرقة النارودفوليين" حتى عام 1896. وفيما بعد انضمت أغلبية أعضائها إلى حزب الاشتراكيّين – الثَّوريّين.
2. **النارودوبرافيون**، أعضاء حزب "نارودنويه برافو" (حق الشعب) – منظمة غير شرعية للمثقفين الدِّيمقراطيّين استهدفت توحيد جميع قوى المعارضة من أجل النِّضال ضد الأتوقراطية. تأسست عام 1893. أصدرت وثيقتين برنامجيتين: "القضية الملحة"، و"البيان". فيما بعد، انضمت أغلبية النارودبرافيين إلى حزب الاشتراكيّين – الثَّوريّين.

أما النظرية الوحيدة للاشتراكية الثَّوريّة، النظرية التي لا تعرف الإنسانية المعاصرة غيرها، أي الماركسيَّة، فإنهم يحيلونها إلى الأرشيفات استناداً إلى **نقد بورجوازي "الاشتراكيّون"! وانتهازي "الثَّوريّون"!**. إن انعدام الأفكار وانعدام المبدأ يقودانهم عملياً إلى "المغامرة الثَّوريّة" التي تتجلى، فيما تتجلى في سعيهم إلى أن يضعوا على مصف واحد فئات وطبقات اجتماعية كالمثقفين والبروليتاريا والفلاحين، وفي دعايتهم الصاخبة للإرهاب "المنهاجي"، وفي برنامج الحدِّ الأدنى الزراعي السيء الذكر الذي وضعوه (جعل الأرض ملكية اجتماعية – التعاون – الربط بحصة الأرض. انظر الايسكرا العددان 23 و24)، وفي موقفهم من اللِّيبراليّين (أنظر "ريفولوتسيونايا روسيا" العدد 9...)، وفي أشياء كثيرة أخرى، سيتأتى علينا، أغلب الظن، أن نتناولها أكثر من مرة. فلا تزال في روسيا كثرة كثيرة من العناصر الاجتماعيّة والظُّروف الاجتماعيّة التي تغذي تذبذب المثقفين، وتثير رغبة الأفراد ذوي الميول الراديكاليّة في الجمع بين القديم الذي ولى عهده والحديث الدارج غير المؤهل للحياة، وتعيقهم عن دمج قضيتهم مع البروليتاريا التي تخوض نضالها الطَّبقيّ، **بحيث أنه سيترتب على الاشتراكيّة – الدِّيمقراطيّة الرُّوسية أن تحسب الحساب لميل أو ميول مثل "الاشتراكيّة – الثَّوريّة"، ما دام التَّطوُّر الرأسماليّ وتأزم التناقضات الطَّبقيّة لم يقضيا على كل تربة لها.**

إن الاشتراكيّة – الدِّيمقراطيّة **تواجهها** في الوقت الحاضر بقوة خاصة، **مهمة** وضع **حدٍّ لكل تشتت وكل تذبذب في أوساطها، ورصِّ صفوفها بمزيد من الوثوق والالتفاف تنظيمياً تحت راية الماركسيَّة الثَّوريّة**، - وتوجيه جميع الجهود نحو **توحيد جميع الاشتراكيّين – الدِّيمقراطيّين العاملين فعلاً**، نحو تعميق وتوسيع نشاطهم، ناهيك عن إيلاء انتباه جديّ لتوضيح الأهمية الحقيقية للميلين المذكورين أعلاه اللذين ترتب من زمان على الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة أخذهما بالحسبان، لتوضيح هذه الأهمية لأوسع جمهور ممكن من المثقفين والعمال.

إن النصف الثاني من العقد العاشر يتصف بانتعاش رائع في وضع القضايا الثَّوريّة الرُّوسية وحلِّها. فإن ظهور الحزب الثَّوريّ الجديد "نارودنويه برافو"، ونجاحات الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين وتعاظم نفوذهم، والتَّطوُّر الداخلي في "نارودنايا فولياّ" – كل هذا أثار نقاشاً نشيطاً للمسائل البرنامجية سواء في حلقات الاشتراكيّين

– المثقفين والعمال – أم في المنشورات السرية. وفي هذا الميدان الأخير تنبغي الإشارة إلى "المسألة الملحة" و"البيان" (عام 1894) لحزب "نارودنويه برافو"، و"الورقة الطائرة لفرقة نارودنايا فوليا"، و"رابوتنيك" التي يصدرها في الخارج" اتحاد الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس"، والنَّشاط المتعاظم فيما يخص إصدار الكراسات الثَّوريّة، ولا سيما منها للعمال في روسيا، والعمل التَّحريضي الذي يقوم به في سانت بطرسبورغ "اتحاد النِّضال من أجل تحرير الطبقة العاملة"(3) الاشتراكيّ الدِّيموقراطيّ، بالارتباط مع الإضرابات المشهورة في بطرسبورغ عام 1896، إلخ..

وفي الوقت الحاضر (أواخر 1897)، نرى أن المسألة الألح إنما هي مسألة نشاط الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين العمليّ. ونشير إلى الجانب العمليّ من الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، لأن جانبها النظري، قد اجتاز، على ما يبدو، أحد المراحل من حيث العناد في عدم تفهم الخصوم، مرحلة الميول المشتدة لسحق التيار الجديد عند ظهوره بالذات، هذا من جهة، ومرحلة الدفاع العنيد عن أسس الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، من جهة أخرى. **فإن آراء الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين النظرية تبدو اليوم بما يكفي من الوضوح من حيث سماتها الرئيسية والأساسيَّة.** ولكنه لا يمكن قول الشيء نفسه عن الجانب العمليّ من الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، عن برنامجها السِّياسيّ، عن طرائق عملها وتاكتيكها. ويخيل لنا أن في هذا الميدان بالضبط يسود أكثر ما يمكن من سوء الفهم ومن قلة الفهم المتبادل، الأمر الذي يحول دون قيام تقارب تام بين الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة والثَّوريّين الذي تخلوا كلياً، في حقل النظرية، عن مفاهيم "نارودنايا فوليا" والذين، في حقل النَّشاط العمليّ، إما يعمدون بحكم الأمور إلى الدعاية والتَّحريض بين العمال، حتى أنهم يضعون نشاطهم بين العمال على صعيد النِّضال الطَّبقيّ، وإما يعمدون إلى إبراز المهمات الدِّيموقراطيّة لكي يتخذوها أساساً لكل البرنامج ولكل النَّشاط الثَّوريّ. وإذا لم نكن على خطأ، فإن السمة الأخيرة تنطبق على الفرقتين الثَّوريّتين اللتين تعملان الآن في روسيا إلى جانب الاشتراكيّين الدِّيموقراطيّين: فرقة "نارودنايا فوليا" وفرقة "نارودنويه برافو".

ولذا نعتبر من المناسب بخاصة أن نحاول تفسير المهمات العمليّة الموضوعية أمام الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة وعرض الأسباب التي تدفعنا إلى اعتبار برنامجها البرنامج

الأكثر عقلانية بين البرامج الثلاثة القائمة، واعتبار الاعتراضات الموجهة إليه قائمة بمعظمها على سوء فهم.

معلوم أن نشاط الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين العمليّ يستهدف قيادة نضال البروليتاريا الطَّبقيّ وتنظيم هذا النِّضال بمظهريه: الاشتراكيّ (النِّضال ضد طبقة الرأسماليّين، النِّضال الذي يرمي إلى القضاء على نظام الطبقات وتنظيم المجتمع الاشتراكيّ)، والدِّيموقراطيّ (النِّضال ضد الحكم المطلق، النِّضال الذي يرمي إلى الظفر بالحرية السِّياسيّة في روسيا وإشاعة الدِّيموقراطيّة في نظام هذا البلد، السِّياسيّ، والاجتماعيّ). وقد قلنا: معلوم. وبالفعل، إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس قد بينوا دائماً بدقة تامة هذا الهدف من نشاطهم، وذلك منذ ظهورهم **اتجاهاً اجتماعياً ثورياً مستقلا؛** وأشاروا دائماً إلى مظهري نضال البروليتاريا الطَّبقيّ، وإلى ازدواج مضمونه، وألحوا دائماً على الصلة الوثقى التي لا تنفصم عراها بين مهماتهم الاشتراكيّة والدِّيموقراطيّة، هذه الصلة التي وجدت تعبيراً جلياً لها في الاسم الذي أطلقوه على أنفسهم. ومع ذلك، فإنكم غالباً ما تلتقون، حتى في هذه الأيام، اشتراكيين يكوّنون عن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين فكرة من أشد الأفكار ضلالاً، ويتهمونهم بتجاهل النِّضال السِّياسيّ، إلخ..

فلنتوقف إذن عند سمة مظهري النَّشاط العمليّ للاشتراكية – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية.

لنبدأ بالنَّشاط الاشتراكيّ:

منذ أن بدأ "اتحاد النِّضال من أجل تحرير الطبقة العاملة" الاشتراكيّ – الدِّيموقراطيّ عمله بين عمال سانت بطرسبورغ، أمكن الظن أن طابع النَّشاط الاشتراكيّ – الدِّيموقراطيّ لا بد أن يكون واضحاً تماماً بهذا الصَّدد.

1- إن عمل الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس **الاشتراكيّ** يتقوم في **الدعاية لتعاليم الاشتراكيّة العلمية،** في نشر **مفهوم صحيح بين العمال عن النظام الاجتماعيّ والاقتصاديّ الحالي،** عن **أسس هذا النظام وتطوره،** عن **مختلف الطبقات في المجتمع الرُّوسي،** و**العلاقات فيما بينها، ونضال هذه الطبقات فيما بينها،** و**دور الطبقة العاملة في هذا النِّضال، وموقفها من الطبقات التي تسير بطريق الزوال،**

والطبقات التي تتطور، وموقفها من ماضي الرأسماليّة ومستقبلها، وعن **المهمة التاريخية الموضوعة أمام الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة العالمية والطبقة العاملة الرُّوسية.**

2-إن **التَّحريض** بين العمال لعلى **صلة وثيقة مع الدعاية، وهو يشغل طبعاً المرتبة الأولى في أوضاع روسيا السِّياسيّة الراهنة،** نظراً لمستوى تطور الجماهير العاملة.

إن التَّحريض بين العمال يتقوم فيما يلي:

-إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين يشتركون في جميع المظاهر العفوية لنضال الطبقة العاملة، في **جميع النزاعات بين العمال والرأسماليّين بسبب يوم العمل، والأجور، وشروط العمل.. إلخ..** ومهمتنا **أن ندمج نشاطنا مع قضايا حياة العمال العمليّة، المعيشية،** ونساعد العمال **على فهم جوهر هذه المسائل،** أن **نلفت انتباه العمال إلى أهم التجاوزات،** ونساعدهم **على أن يصوغوا، بمزيد من الدقة والروح العمليّة، المطالب التي يتقدمون بها من أرباب عملهم،** ونطور **عند العمال وعي تضامنهم، وعي مصالحهم المشتركة والعمل المشترك لجميع العمال الرُّوس، بوصفهم طبقة عاملة موحدة تؤلف قسماً من جيش البروليتاريا العالمي.**

- تنظيم **الحلقات بين العمال،** إقامة **علاقات صحيحة وسرية بين هذه الحلقات وفرقة الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين المركزية، إصدار وتوزيع المنشورات العُمَّاليَّة، تنظيم إرسال المراسلات من جميع مراكز الحركة العُمَّاليَّة،** إصدار وتوزيع **المناشير التَّحريضية والنداءات،** تكوين **فريق من المحرضين المحنكين، تلك هي، بخطواتها العامة، مظاهر النَّشاط الاشتراكيّ للاشتراكية – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية.**

-إن عملنا موجه، قبل كل شيء، وفوق كل شيء، **نحو عمال المصانع، عمال المدن.** فعلى الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية **أن لا تبعثر قواها،** إنما يجب عليها **أن تركز جهودها في صفوف البروليتاريا الصناعية، الأكثر تطوراً ثقافياً وسياسياً، الأهم من حيث عددها وتمركزها في مراكز البلاد السِّياسيّة الكبرى.** ولذا كان **إنشاء منظمة ثورية متينة بين عمال المصانع، بين عمال المدن، المهمة الأولى والألح بين مهام الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة،** المهمة التي يكون في أقصى الجنون الانصراف عنها في الوقت الحاضر. ولكننا، مع اعترافنا بضرورة حصر قوانا بين عمال المصانع ومعه

شجبنا لبعثرة هذه القوى، لا نريد أبداً أن تتجاهل الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية سائر فئات البروليتاريا والطبقة العاملة الرُّوسيتين. كلا. إن العامل الرُّوسي في المصنع **ملزم** في أغلب الحالات، بحكم شروط حياته بالذات، **بإقامة أوثق الروابط مع الحرفيين، مع هذه البروليتاريا الصناعية المنتشرة خارج المصانع في المدن والقرى، والعائشة في أوضاع أسوأ بكثير**. إن العامل الرُّوسي في المصنع **على صلة مباشرة أيضاً مع سكان الريف (غالباً ما تعيش أسرة العامل في الريف)**، فلا يستطيع بالتالي أن لا يقترب أيضاً من البروليتاريا الريفية، من ملايين العمال الزراعيين المحترفين والمياومين، وكذلك من هؤلاء الفلاحين الذين حل بهم الخراب، والذين يتشبثون بقطع حقيرة من الأرض، فينصرفون إلى أعمال السخرة وإلى "مورد للرزق" كيفما اتفق، أي إلى هذا العمل المأجور نفسه. وإن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس ليرون من غير المناسب الآن توجيه قواهم نحو الحرفيين والعمال الزراعيين، ولكنهم لا يريدون إطلاقاً إهمال هذه البيئة، وسيسعون أيضاً إلى إنارة العمال الطليعيين حول المسائل المتعلقة بحياة الحرفيين والأجراء الزراعيين، لكي يستطيع هؤلاء العمال، حين يتصلون بفئات البروليتاريا الأكثر تأخراً منهم، أن يحملوا إليها أفكار النِّضال الطَّبقيّ والاشتراكيّة والمهمات السِّياسيّة للديموقراطية الرُّوسية بوجه عام والبروليتاريا الرُّوسية بوجه خاص. **وليس من الصواب أن نرسل** المحرضين إلى هؤلاء الحرفيين والأجراء الزراعيين، طالما هناك مثل هذا القدر الكبير من العمل الذي يجب القيام به بين عمال المصانع، عمال المدن؛ **ولكن العامل الاشتراكيّ يدخل**، في جملة من الحالات، ودون قصد منه، في صلة مع هذه البيئة، ويجب عليه أن يعرف كيف يستفيد من هذه الحالات ويدرك المهمات العامة للاشتراكية – الدِّيموقراطيّة في روسيا. ولذا يخطئون فادح الخطأ أولئك الذين يتهمون الاشتراكية – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية بضيق الأفق، وبالرغبة في تجاهل سواد السكان الكادحين، والاهتمام فقط بعمال المصانع وحدهم. فالأمر بالعكس. فإن التَّحريض بين الفئات المتقدمة من البروليتاريا هو آمن وسيلة والوسيلة الوحيدة لإيقاظ (بقدر ما تتسع الحركة) البروليتاريا الرُّوسية بأسرها. إن ترويج الاشتراكيّة وفكرة النِّضال الطَّبقيّ بين عمال المدن لا بد له أن يسوق هذه الأفكار بأقنية أضيق، وأكثر تشعباً: ولهذا الغرض، كان من الضروري أن تمد هذه الأفكار

جذورها عميقاً في بيئة أحسن استعداداً، وتغذي، بوفرة، هذه الطليعة من الحركة العُمَّاليَّة الرُّوسية والثَّورة الرُّوسية.

إن الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية، إذ توجه كل قواها نحو العمل بين عمال المصانع، **لمستعدة أيضاً أن تدعم أولئك الثَّوريّين الرُّوس ممن يقودهم النَّشاط العمليّ إلى وضع الاشتراكيّة على صعيد نضال البروليتاريا الطَّبقي**، وهي في هذه الحال، **لا تخفي إطلاقاً أي تحالف عملي مع سائر فئات الثَّوريّين لا يمكن له ولا يجب أن يؤول إلى مساومات أو إلى تنازلات في حقل النظرية والبرنامج والراية. إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس لمقتنعون بأن مذهب الاشتراكيّة العلمية والنِّضال الطَّبقيّ هو وحده الذي يمكن أن يكون في الوقت الحاضر النظرية الثَّوريّة التي تقوم مقام راية الحركة الثَّوريّة،**

ولذا فإنهم سيروجون له بكل قواهم ويحمونه من التأويلات الخاطئة، ويهبون ضد جميع المحاولات الرامية إلى ربط الحركة العُمَّاليَّة التي لا تزال فتية في روسيا، بمذاهب أقل دقة ووضوحاً. **فإن الشروحات النظرية تبرهن، ونشاط الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين العمليّ يبين أنه يجب على جميع الاشتراكيّين في روسيا أن يصبحوا اشتراكيين – ديموقراطيين.**

لننتقل إلى مهمات الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الدِّيموقراطيّة وإلى عملهم الدِّيموقراطيّ.

إننا نعيد القول مرة أخرى، أن هذا العمل يرتبط بالعمل الاشتراكيّ ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه.

إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين، إذ يقومون بالدعاية بين العمال، لا يستطيعون التهرب من القضايا السِّياسيّة، بل يعتبرون كل محاولة للتهرب منها أو حتى للتأجيل هفوة كبيرة وانتهاكاً للمبادئ الأساسيَّة للاشتراكية – الدِّيموقراطيّة العالمية. فإلى جانب **الدعاية للاشتراكية العلمية**، يأخذ الاشتراكيّون الدِّيموقراطيّون الرُّوس على عاتقهم مهمة **الدعاية أيضاً للأفكار الدِّيموقراطيّة بين جماهير العمال**، ويسعون إلى نشر **مفهوم الحكم المطلق بكل ظاهرات نشاطه، مفهوم مضمونه الطَّبقيّ، وضرورة إسقاطه، واستحالة النِّضال بنجاح في سبيل قضية العمال دون الحصول**

على الحرية السِّياسيّة وإشاعة الدِّيموقراطيّة في النظام السِّياسيّ والاجتماعيّ في روسيا. والاشتراكيّون – الدِّيموقراطيّون، إذ يقومون بين العمال بعمل تحريضي يرتكز على المطالب الاقتصاديّة المباشرة، إنما يربطون به ربطاً وثيقاً التَّحريض المرتكز على الحاجات السِّياسيّة المباشرة للطبقة العاملة، على شقائها ومطالبها؛ التَّحريض ضد النير البوليسي الذي يتجلى في كل إضراب، في كل نزاع بين العمال والرأسماليّين، التَّحريض ضد تقييد حقوق العمال بوصفهم مواطنين في روسيا بوجه عام، وبوصفهم الطبقة التي تعاني أشد الاضطهاد وأشد الحرمان من الحقوق بوجه خاص، التَّحريض ضد كل ممثل بارز وخادم للحكم المطلق يحتك مباشرة بالعمال ويبين بوضوح للطبقة العاملة عبوديتها السِّياسيّة.

وإذا كانت لا توجد مسألة في حياة العمال، في ميدان الاقتصاد، لا يجب استخدامها في أغراض التَّحريض الاقتصاديّ، كذلك لا توجد مسألة في حقل السياسة لا يجب استخدامها في أغراض التَّحريض السِّياسيّ. إن التَّحريض الاقتصاديّ والتَّحريض السِّياسيّ كلاهما ضروري على حد سواء لتطوير وعي البروليتاريا الطَّبقيّ، **لأن كل نضال طبقي هو نضال سياسي.** إن شكلي التَّحريض كليهما، إذ يوقظان وعي العمال وينظمانهم، ويعودانهم الطاعة، ويربيانهم للقيام بنشاط تضامني وللنضال في سبيل المثل العليا الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، سيمكنان العمال من امتحان قواهم فيما يتعلق بالقضايا التي تمسهم عن كثب، فيما يتعلق بحاجاتهم المباشرة، إنهما سيمكنانهم من انتزاع تنازلات جزئية من عدوهم فيحسنون وضعهم الاقتصاديّ، ويجبرون الرأسماليّين على حسبان الحساب لقوة العمال المنظمة، ويكرهون الحكومة على توسيع حقوق العمال والإصغاء لمطالبهم، إذ يبقونها في خوف دائم من الجماهير العاملة المعادية لها، السائرة بقيادة منظمة اشتراكية – ديموقراطية متينة.

لقد أشرنا إلى الصلة الوثقى التي تربط بين الدعاية والتَّحريض الاشتراكيّين والدِّيموقراطيّين، وإلى التوازي الكلي للعمل الثَّوريّ في كل من المجالين. **ولكنه يوجد أيضاً فرق كبير جداً بين مظهري النَّشاط والنِّضال.** وقوام هذا الفرق، **أن البروليتاريا تكون وحدها إطلاقاً في النِّضال الاقتصاديّ بينما يكون ضدها أسياد الأراضي النبلاء والبرجوازيّة، ولا تحظى إلا بمساعدة (لا دائماً، طبعاً) عناصر البرجوازيّة الصَّغيرة التي تنجذب نحو البروليتاريا. في حين أن الطبقة العاملة الرُّوسية ليست وحدها في**

النِّضال الدِّيموقراطيّ السِّياسيّ، فإلى جانبها تنضم جميع عناصر المعارضة السِّياسيّة، جميع فئات السكان وجميع الطبقات التي تعادي الحكم المطلق، وتحاربه بهذه الأشكال أوتلك. وإلى جانب البروليتاريا، تقف أيضاً عناصر المعارضة البرجوازيّة، أو الطبقات المتعلمة، أو من البرجوازيّة الصغيرة، أو من القوميات، أو من الأديان، أو من الطوائف..إلخ، التي يضطهدها الحكم المطلق.

وهنا يوضع السؤال بشكل طبيعي تماماً:

-أولاً، كيف يجب أن تكون علاقات الطبقة العاملة مع هذه العناصر؟

-وثانياً، ألا يجب على الطبقة العاملة أن تتحالف مع هذه العناصر من أجل القيام بنضال مشترك ضد الحكم المطلق؟

وبما أن جميع الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين يعترفون بأنه يجب أن تسبق الثَّورة السِّياسيّة في روسيا الثَّورة الاشتراكيّة، **أفلا يجدر تأجيل الاشتراكيّة مؤقتاً، بعد التحالف مع جميع عناصر المعارضة السِّياسيّة من أجل النِّضال ضد الحكم المطلق؟ أليس ذلك إلزامياً من أجل تقوية النِّضال ضد الحكم المطلق؟ لنبحث هذين السؤالين:**

ففيما يتعلق بعلاقات الطبقة العاملة في كفاحها ضد الحكم المطلق، مع جميع فئات **وطبقات المعارضة السِّياسيّة الأخرى في المجتمع، فإن هذه العلاقات إنما تحددها بدقة كاملة المبادئ الأساسيَّة للاشتراكية – الدِّيموقراطيّة، المعروضة في "بيان الحزب الشيوعي" الشهير.** إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين يؤيدون طبقات المجتمع التقدمية ضد الطبقات الرجعية، والبرجوازيّة ضد ممثلي الملكية العقارية المميزة والمغلقة، وضد سلك الموظفين، البرجوازيّة الكبيرة ضد الأطماع الرجعية للبرجوازية الصَّغيرة. وهذا التأييد لا يفترض ولا يتطلب أية مساومة مع البرامج والمبادئ غير الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة: **فهو تأييد حليف ضد عدو معين،** وإذا كان الاشتراكيّون – الدِّيموقراطيّون يمحضون هذا التأييد، فلكي يعجلوا سقوط العدو المشترك، ولكنهم لا يتوقعون شيئاً لأنفسهم من هؤلاء الحلفاء المؤقتين ولا يتنازلون لهم عن شيء. إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين يؤيدون كل حركة ثورية ضد النظام الاجتماعيّ الحالي،

كل قومية مظلومة، كل دين مضطهد، كل فئة اجتماعية مستذلة، وهكذا دواليك، في نضالها من أجل المساواة في الحقوق.

إن تأييد جميع عناصر المعارضة السِّياسيّة إنما يجب أن ينعكس في دعاية الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين على النحو التالي:

إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين، إذ يبرهنون على عداء الحكم المطلق لقضية العمال، سيبينون في الوقت نفسه أن الحكم المطلق يعادي هذه أو تلك من الفئات الاجتماعيّة الأخرى، وسيبينون تضامن الطبقة العاملة مع هذه الفئات في هذه المسائل أو تلك، من أجل هذه المهمات أو تلك، ..إلخ..

أما في حقل التَّحريض:

فإن هذا التأييد سيتجسد في أن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين سيستغلون جميع ظاهرات نير الحكم المطلق البوليسي لكي يبينوا للعمال أن هذا النير ينيخ بكلكله على جميع المواطنين بوجه عام، وبوجه خاص على ممثلي الفئات الاجتماعيّة، والقوميات، والأديان والطوائف.. إلخ، التي تعاني من الاضطهاد أشده، ولكي يبينوا للعمال كيف أن هذا النير ينيخ بكلكله على الطبقة العاملة بوجه أخص. وأخيراً، يتجسد هذا التأييد عملياً **في كون الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس مستعدين للتحالف مع الثَّوريّين على اختلاف اتجاهاتهم، بغية تحقيق هذه الأهداف الجزئية أو تلك، وهذا الاستعداد إنما أعطي عنه البرهان عملياً أكثر من مرة.**

وهكذا نصل إلى السؤال الثاني:

إن الاشتراكيّين الدِّيموقراطيّين، **إذ يبينون تضامن هذه الفئات المعارضة أو تلك مع العمال، سيضعون دائماً العمال على حدة، وسيجهدون دائماً لتفسير طابع هذا التضامن، المؤقت والمشروط، وسيشيرون على الدوام إلى أن البروليتاريا طبقة على حدة، قد تتكشف غداً عن خصم لحلفائها اليوم.**

سيقال لنا: إن مثل هذه الإشارة **ستضعف الحرية السِّياسيّة**، في الوقت الحاضر. وسنجيب: إن هذه الإشارة **ستقوي جميع المكافحين من أجل الحرية السِّياسيّة.** فالأقوياء هم وحدهم أولئك المكافحون الذين يعتمدون إلى ما لطبقات معينة من

مصالح فعلية مفهومة فهماً جيداً، وكل تمويه لهذه المصالح الطَّبقيّة، التي تضطلع منذ الآن بدور أولي في المجتمع المعاصر، لن يفعل غير أن يضعف المكافحين، هذا أولاً.

- ثانياً، **في النِّضال ضد الحكم المطلق، يجب على الطبقة العاملة أن تضع نفسها على حدة، لأنها وحدها إلى النهاية العدو المنسجم والمطلق للحكم المطلق، وبينها وحدها والحكم المطلق، تستحيل المساومات، وفي الطبقة العاملة وحدها يمكن للديموقراطية أن تجد نصيراً مطلقاً، لن يظهر عليه التردد، ولن يتطلع إلى الوراء.**

-إن العداء للحكم المطلق في جميع الطبقات الأخرى، في جميع الفئات والكتل الأخرى من السكان، ليس مطلقاً، **وديموقراطيتها تتطلع دائماً إلى الوراء.** وليس في مستطاع البرجوازيّة أن لا تدرك أن الحكم المطلق يعيق التَّطوُّر الصناعي والاجتماعيّ، ولكنها تخشى إشاعة الدِّيموقراطيّة بصورة تامة في النظام السِّياسيّ والاجتماعيّ، وفي **إمكانها دائماً أن تتحالف مع الحكم المطلق ضد البروليتاريا.** أما البرجوازيّة الصَّغيرة، فطبيعتها مزدوجة: فهي تشعر من جهة بالميل إلى البروليتاريا والدِّيموقراطيّة كما تشعر من جهة أخرى بالميل إلى الطبقات الرجعية، فتسعى إلى إعاقة سير التاريخ، وفي وسعها أن تؤخذ وتخدع بتجارب الحكم المطلق، وفي وسعها أن تتحالف مع الطبقات الحاكمة ضد البروليتاريا، لمجرد أن توطد وضعها بوصفها مالكاً صغيراً. **إن الناس المتعلمين، أو "الأنتليجنتسيا" بوجه عام، لا يمكنها أن لا تنتفض ضد الاضطهاد البوليسي الوحشي الذي يسلطه الحكم المطلق الذي يطارد الفكر والمعرفة، ولكن مصالح هذه الأنتليجنتسيا المادية تربطها بالحكم المطلق، بالبرجوازيّة وتجبرها على أن لا تكون منسجمة، على إجراء مساومات، على بيع حميتها الثَّوريّة وحمية معارضتها لقاء الرواتب التي تدفعها لها الدولة، أو لقاء حصة من الأرباح أو القسائم.**

أما فيما يتعلق بالعناصر الدِّيموقراطيّة التي تنتسب إلى القوميات المظلومة أو التي تعتنق ديناً مضطهداً، فإن كل امرئ يعرف ويرى أن التناحرات الطَّبقيّة في قلب هذه الفئات من السكان أقوى وأعمق بكثير من تضامن جميع طبقات الفئة المعنية ضد الحكم المطلق وفي سبيل المؤسسات الدِّيموقراطيّة. **ولكن البروليتاريا وحدها تستطيع أن تكون – وبحكم وضعها الطَّبقيّ لا تستطيع أن لا تكون – ديموقراطية**

منسجمة إلى النهاية، عدواً حازماً للحكم المطلق، عاجزة عن أي تنازل، عن أي مساومة. إن البروليتاريا وحدها تستطيع أن تكون مكافحاً طليعياً في سبيل الحرية السِّياسيّة والمؤسسات الدِّيموقراطيّة؛ أولاً، لأن على البروليتاريا يمارس الاضطهاد السِّياسيّ بأعنف أشكاله، ولا يجد أي تخفيف له في وضع هذه الطبقة، فأبواب السُّلطة العليا موصدة في وجهها، وحتى أبواب سلك الموظفين، وليس في إمكانها التأثير في الرأي العام. ثانياً، إن البروليتاريا وحدها قادرة على أن تدفع إلى النهاية إشاعة الدِّيموقراطيّة في النظام السِّياسيّ والاجتماعيّ، إذ إن مثل هذه الإشاعة من شأنها أن تضع هذا النظام في أيدي العمال.

ولهذا السبب، كان دمج نشاط الطبقة العاملة الدِّيموقراطيّ مع ديموقراطية الطبقات والفئات الأخرى، من شأنه أن يضعف من قوة الحركة الدِّيموقراطيّة، أن يضعف النِّضال السِّياسيّ، ويجعله أقل حزماً، وأقل انسجاماً وأوفر قدرة على المساومة. أما وضع الطبقة العاملة على حدة، بوصفها مكافحاً طليعياً في سبيل المؤسسات الدِّيموقراطيّة، فهو، على العكس، يقوي الحركة الدِّيموقراطيّة، يقوي النِّضال في سبيل الحرية السِّياسيّة، لأن الطبقة العاملة ستحفز جميع العناصر الدِّيموقراطيّة وعناصر المعارضة السِّياسيّة الأخرى، وتدفع اللِّيبراليّين نحو الراديكاليّين السِّياسيّين، وتدفع الراديكاليّين إلى القطيعة الحاسمة مع كل النظام السِّياسيّ والاجتماعيّ في المجتمع الحالي.

ونوضح فكرتنا بمثال، لنأخذ هذه المؤسسة التي هي سلك الموظفين أو الدواوينية (البيروقراطية)، بوصفها فئة خاصة من أفراد مختصين في الإدارة وموضوعين في وضع مميز بالنسبة إلى الشعب.

لأن الدواوينية هذه تحتفظ بكثرة من الامتيازات، وهي في غالب الأحيان سيدة الشعب لا خادمته. فأكثر فئات البرجوازيّة تقدماً تدافع عن بعض امتيازات سلك الموظفين، وتعارض انتخاب جميع الموظفين، وإلغاء تقييد الحق الانتخابي إلغاء تاماً، وجعل الموظفين مسؤولين مباشرة أمام الشعب، إلخ.. إذ أن هذه الفئات تدرك أن البروليتاريا ستستخدم هذه الإشاعة للديموقراطية إلى النهاية ضد البرجوازيّة. فضد سلك الموظفين الرُّوسي الكلي الجبروت، غير المسؤول، المباع، الوحشي، الجاهل، الطفيلي،

تهب فئات عديدة جداً من الشعب الرُّوسي ومن أكثرها تنوعاً وتبايناً. ولكنه لا توجد، عدا البروليتاريا، فئة واحدة من هذه الفئات تقبل بإشاعة الدِّيموقراطيّة إشاعة كلية في سلك الموظفين، لأن لجميع الفئات الأخرى (البرجوازيّة، والبرجوازيّة الصَّغيرة، و"الأنتليجنتسيا" بوجه عام) روابط مع الموظفين، لأن جميع هذه الفئات تنتسب إلى سلك الموظفين الرُّوسي. **فهل هناك من يجهلون بأية سهولة يجري في روسيا المقدسة تحويل المثقف الراديكاليّ، المثقف الاشتراكيّ، إلى موظف الحكومة الإمبراطورية -موظف يتعزى بفكرة أنه "مفيد" في حدود الرتابة الدواوينية – موظف يبرر بهذه "الفائدة" لامبالاته السِّياسيّة، واستجداءه أمام حكومة السوط والهراوة؟** البروليتاريا، وحدها، معادية للحكم المطلق والدواوينية الرُّوسية عداء مستحكماً، البروليتاريا ،وحدها لا رابطة لها مع هذه الأجهزة لمجتمع النبلاء والبرجوازيّة، البروليتاريا وحدها قادرة على الحقد عليها حقداً لا هوادة فيه ومحاربتها بحزم وتصميم.

وحين نبرهن على أن **البروليتاريا،** التي تخوض نضالها الطَّبقيّ بقيادة الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، **هي المكافح الطليعي في الدِّيموقراطيّة الرُّوسية،** فإننا نصطدم برأي في أقصى الانتشار والغرابة، رأي يزعم أن الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية تنبذ المهام السِّياسيّة والنِّضال السِّياسيّ إلى المؤخرة.

للإجابة على ذلك، يخيل لنا أنه ينبغي البحث عن تفسير هذا الواقع المدهش في الظُّروف الثلاثة التالية:

* أولاً، **في الانعدام العام لفهم مبادئ الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة عند ممثلي النظريات الثَّوريّة القديمة،** ممن اعتادوا بناء البرامج وخطط النَّشاط على أفكار مجردة، بدلاً من حسبان الحساب للطبقات الفعلية التي تعمل في البلاد والتي وضعها التاريخ في هذه العلاقات أو تلك. وعن انعدام هذه الدراسة الواقعية للمصالح التي تساند الدِّيموقراطيّة الرُّوسية.

* ثانياً، **في عدم فهم أن جمع القضايا الاقتصاديّة والسِّياسيّة، جمع النَّشاط الاشتراكيّ والدِّيموقراطيّ في كل واحد، في نضال طبقي واحد تخوضه البروليتاريا، لا يضعف، بل يعزز الحركة الدِّيموقراطيّة ويقوي النِّضال السِّياسيّ ويقربه من**

المصالح الفعلية للجماهير الشعبية، ومن أعماق "مكاتب الأنتيليجنتسيا الضيقة"، تخرج القضايا السِّياسيّة إلى الشارع، إلى بيئة العمال والطبقات الكادحة، واضعة محل الأفكار المجردة عن الاضطهاد السِّياسيّ ظاهرات هذه الاضطهاد الفعلية التي أشد ما تعاني منها البروليتاريا، والتي على أساسها تقوم الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة في عملها التَّحريضي.

* ثالثاً، **إن سوء الفهم ينجم عن أن لمفهوم "النِّضال السِّياسيّ" نفسه معنى يختلف بالنسبة لنصير "نارودنايا فوليا" ونصير "نارودنويه برافو" من جهة، وبالنسبة للاشتراكي – الدِّيموقراطيّ من جهة أخرى**. إن الاشتراكيّين الدِّيموقراطيّين يفهمون النِّضال السِّياسيّ على نحو آخر، إنهم يفهمونه على نحو أوسع بكثير مما يفهمه ممثلو النظريات الثَّوريّة القديمة. ولنا مثال أخاذ عن ذلك، مثلا **إن مفهوم النِّضال السِّياسيّ ومفهوم التآمر السِّياسيّ هما بالنسبة للنارودوفوليا شيء واحد!** إن تقاليد البلانكية، تقاليد روح التآمر، قوية جداً عند أنصار "نارودنايا فوليا"، قوية إلى حدِّ أنهم لا يستطيعون أن يتصوروا النِّضال السِّياسيّ إلا بشكل تآمر سياسي. والحال لا يمكن اتهام الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين بمثل هذا الضيق في التفكير، فهم **لا يؤمنون بالمؤامرات**، بل يعتقدون أن عهد المؤامرات قد ولى منذ زمن بعيد، وإن حصر النِّضال السِّياسيّ في التآمر إنما يعني المغالاة في تقليصه من جهة، ومن جهة أخرى، اختيار أقل أساليب النِّضال حظاً بالتوفيق. وإن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس لم ينسوا قط في الواقع أوضاعنا السِّياسيّة، **ولم يحلموا قط بإمكان إنشاء حزب عمالي في روسيا بصورة علنية، مكشوفة، ولم يفصلوا قط مهمة النِّضال في سبيل الاشتراكيّة عن مهمة النِّضال في سبيل الحرية السِّياسيّة**. وقد **اعتقدوا دائماً**، ولا يزالون يعتقدون، **أن هذا النِّضال إنما ينبغي أن لا يقوم به متآمرون، بل حزب ثوري يعتمد على الحركة العُمَّاليَّة**. وهم **يعتقدون أنه ينبغي أن لا ينحصر النِّضال ضد الحكم المطلق في تحضير المؤامرات، بل في تثقيف البروليتاريا وتنظيمها وتعويدها الطاعة، في التَّحريض السِّياسيّ بين العمال، بغية التنديد بكل ظاهرة من ظاهرات الحكم المطلق والتشهير بكل فرسان الحكومة البوليسية وإكراه هذه الحكومة على إجراء التنازلات**. أليس هذا بالضبط نشاط "اتحاد النِّضال من أجل تحرير الطبقة العاملة في سانت بطرسبورغ"؟ **أليست هذه المنظمة**، بالضبط، **جنيناً للحزب**

الثَّوريّ الذي يعتمد على الحركة العُمَّاليَّة ويقود نضال البروليتاريا الطَّبقيّ، ويقود النِّضال ضد الرأسمال وضد الحكومة المطلقة دون أن ينظم أي مؤامرة من المؤامرات، ويستمد قواه بالضبط من توحيد النِّضال الاشتراكيّ والدِّيموقراطيّ في نضال طبقي واحد لا يتجزأ تخوضه بروليتاريا بطرسبورغ؟ أولم يثبت نشاط "الاتحاد"، رغم قصره، أن البروليتاريا السائرة بقيادة الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة تشكل قوة سياسية كبرى، لا بد للحكومة أن تحسب لها الحساب منذ الآن، وتسرع في إجراء التنازلات لها؟

يبقى لنا أن نقول بضع كلمات عن أعضاء "نارودنويه برافو". إن لافروف على تمام الحق، حسب رأينا، حين يقول إن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين يوصون بأعضاء "نارودنويه برافو" على اعتبار أنهم أناس أكثر صراحة، وهم مستعدون لتأييدهم، دون أن يندمجوا معهم، إنما ينبغي أن نضيف فقط: على اعتبار أن أعضاء "نارودنويه برافو" ديموقراطيون أكثر صراحة، وبقدر ما يتكشفون عن ديموقراطيين منسجمين. ولكن هذا الشرط، مع الأسف، هو بالأحرى، أمنية المستقبل أكثر منه واقع الحاضر. لقد أعرب أعضاء "نارودنويه برافو"عن الرغبة في تخليص المهمات الدِّيموقراطيّة من الشعبوية، وكذلك تخليصها بوجه عام من كل صلة مع الأشكال القديمة "للاشتراكية الرُّوسية"، ولكنه تبين أنهم أنفسهم كانوا أبعد من أن يكونوا قد تحرروا من الأوهام القديمة، وأبعد من أن يكونوا منسجمين، حين أسموا حزبهم، حزب التحويلات السِّياسيّ الصرف، - الحزب "الاجتماعيّ الثَّوريّ" (راجع بيانهم في 19 شباط/ فبراير 1894)، وحين أعلنوا في "بيانهم أن "فكرة تنظيم الإنتاج الشعبي تدخل في مفهوم حق الشعب" (ونحن مكرهون هنا على الاستشهاد عن ظهر قلب)، فمرقوا هكذا خلسة نفس أوهام الشعبية. ولهذا، ربما لم يكن لافروف على تمام الخطأ حين نعتهم بأنهم "ساسة مساخر". ولكن ربما يكون من الأصح اعتبار النارودوبرافية مذهباً انتقالياً، لا يمكن الامتناع عن الإشادة بمأثرته إذ خجل من أصالة المذاهب الشعبوية وخاض علناً وجهاراً غمار الجدال والمناظرة ضد أشد أعضاء الشعبوية إغراقاً في الرجعية، أولئك الذين يسمحون لأنفسهم بالقول، إزاء الحكم المطلق البوليسي والطَّبقيّ، بأن التحويلات الاقتصاديّة لا السِّياسيّة هي المرغوب فيها (راجع "المسألة الملحة"، إصدار حزب "نارودنويه برافو"). فإذا كان حزب "نارودنويه برافو" لا يضم

فعلاً غير أناس كانوا سابقاً اشتراكيين ويخفون رايتهم الاشتراكيّة لاعتبارات تكتيكية، ولا يفعلون غير أن يتقنعوا بقناع يظهرون فيه أنهم سياسيون غير اشتراكيين (كما يفترض لافروف)، فليس لهذا الحزب إذ ذاك، طبعاً، أي مستقبل. ولكن إذا كان هذا الحزب يضم أيضاً رجالاً سياسيين حقيقيين غير اشتراكيين، ديموقراطيين غير اشتراكيين، لا يتسمون بأية من سمات ساسة المساخر، حينذاك يمكن أن يكون هذا الحزب جزيل الفائدة، إذا ما سعى إلى التقرب من عناصر المعارضة السِّياسيّة في برجوازيتنا، إلى إيقاظ الوعي السِّياسيّ الطَّبقيّ عند برجوازيتنا الصَّغيرة، صغار التجار، صغار الحرفيين، إلخ..، عند هذه الطبقة التي لعبت دورها في الحركة الدِّيموقراطيّة في كل مكان من أوروبا الغربية، وخطت عندنا في روسيا خطوات سريعة جداً إلى الأمام في الميدان الثَّقافيّ وغيره من الميادين في الحقبة التي عقبت الإصلاح، والتي لا يمكنها أن لا تشعر بنير الحكومة البوليسية، مع ما تسديه من تأييد وقح لكبار الصناعيين، وكبار الطواغيت(احتكاريي المال والصناعة). ولهذا الغرض، ينبغي فقط أن يأخذ أعضاء "نارودنويه برافو" على عاتقهم مهمة قوامها بالضبط التقرب من مختلف فئات السكان، بدلاً من الاقتصار دائماً على "الأنتيليجنتسيا" نفسها التي تعترف "المسألة الملحة" أيضاً بعجزها لانفصالها عن مصالح الجماهير الفعلية. ولهذا الغرض، ينبغي أن يتخلى النارودوبرافيون عن جميع ادعاءاتهم الرامية إلى دمج عناصر المجتمع المتباينة واستبعاد الاشتراكيّة عن ميدان المهمات السِّياسيّة، أن يتخلوا عن الخجل الكاذب الذي يعيق التقارب مع الفئات البرجوازيّة من الأمة، أي أن لا يكتفوا بالحديث عن برنامج الرجال السِّياسيّين غير الاشتراكيّين، بل أن يعملوا أيضاً وفقاً لهذا البرنامج، بإيقاظ وتطوير الوعي الطَّبقيّ عند تلك الفئات والطبقات الاجتماعيّة التي لا تحتاج إطلاقاً إلى الاشتراكيّة، ولكنها تشعر أكثر فأكثر بثقل نير الحكم المطلق وضرورة الحرية السِّياسيّة.

إن الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية لا تزال فتية جداً. فقد خرجت للتو من هذه الحالة الجنينية التي كانت فيها القضايا النظرية تحتل مكاناً أولياً. وبدأت للتو في تطوير نشاطها العمليّ. وعلى ثوريي الفئات الأخرى، بحكم الأمور، أن ينتقدوا نشاط الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس العمليّ، بدلاً من أن ينتقدوا النظريات والبرامج الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة.

إن مجالاً رحباً للعمل، يكاد أن يكون بكراً، ينفتح أمام الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة الرُّوسية. فإن يقظة الطبقة العاملة الرُّوسية، واندفاعها العفوي إلى المعرفة، إلى الاتحاد، إلى الاشتراكيّة، إلى النِّضال ضد مستثمريها ومضطهديها، يتجليان يوماً بعد يوم بمزيد من السطوع والسعة. والخطوات الهائلة التي خطتها الرأسماليّة الرُّوسية إلى الأمام في الآونة الأخيرة، تعطي الضمانة على أن الحركة العُمَّاليَّة ستنمو بلا انقطاع سعة وعمقاً. وفي الظرف الراهن، نجتاز، على ما يبدو، مرحلة من الدَّورة الرأسماليّة "تزدهر" فيها الصناعة، وتنشط فيها التجارة بالغ النَّشاط، وتعمل فيها المصانع بكل طاقتها، وتنبت فيها، كالفطر بعد المطر، كثرة من المصانع الجديدة، والمؤسسات الجديدة، والشركات المساهمة، والسكك الحديدية، إلخ..، إلخ..، ولا حاجة أن يكون المرء نبياً لكي يتنبأ بالإفلاس المحتم (الشديد إلى هذا الحد أو ذاك) الذي لا بدّ أن يعقب هذا "الازدهار" في الصناعة. إن هذا الإفلاس سيشيع الخراب بين سواد أرباب العمل الصغار، ويقذف بجماهير من العمال إلى صفوف العاطلين عن العمل، ويضع، على هذا النحو، أمام جميع الجماهير العُمَّاليَّة، وبشكل حاد، قضايا الاشتراكيّة والدِّيموقراطيّة، التي توضع منذ زمن بعيد أمام كل عامل واع ومفكر. فعلى الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس أن يحرصوا على أن يجد هذا الإفلاس البروليتاريا الرُّوسية أوفر وعياً، وأوفى اتحاداً، متفهمة لمهمات الطبقة العاملة الرُّوسية، قادرة على الرد على طبقة الرأسماليّين الذين يجنون في أيامنا أرباحاً فاحشة ويسعون دائماً إلى تحميل العمال خسائرهم، قادرة على السير في طليعة الدِّيموقراطيّة الرُّوسية وشن نضال حاسم ضد الحكم المطلق البوليسي، الذي يكبل أيادي وأقدام العمال الرُّوس والشعب الرُّوسي بأسره.

وهكذا إذن، إلى العمل، أيها الرفاق! ولا نضيعنّ وقتاً ثميناً! فعلى الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين الرُّوس أن يبذلوا جهداً هائلاً لتلبية حاجات البروليتاريا التي تستيقظ، لتنظيم الحركة العُمَّاليَّة، لتعزيز الجماعات الثَّوريّة وصلاتها المتبادلة، لتزويد العمال بأدب الدعاية والتَّحريض، لحشد الحلقات العُمَّاليَّة والفرق الاشتراكيّة – الدِّيموقراطيّة، المبعثرة في جميع أنحاء روسيا، في حزب عمالي اشتراكي – ديموقراطي واحد!

إلى العمال والاشتراكيّين في بطرسبورغ
من "اتحاد النِّضال"

ثوريو بطرسبورغ يعيشون مرحلة شديدة الوطأة. فكأنّ الحكومة قد جمعت جميع قواها لكي تحطم الحركة العُمَّاليَّة التي ولدت منذ وقت غير بعيد وتجلت ببالغ القوة. وقد ارتدت الاعتقالات مقاييس فائقة العادة، والسجون تغص بالمسجونين. يقبضون على المثقفين والرجال والنساء، يقبضون على العمال وينفونهم بالجملة. ويكاد لا يمضي يوم دون أن يحمل الأنباء عن ضحايا جديدة وجديدة للحكومة البوليسية المنفلتة بكل كَلَب وضراوة على أعدائها. وقد وضعت الحكومة نصب عينيها أن تمنع التيار الجديد في الحركة الثَّوريّة الرُّوسية من أن يستعيد قواه ويقف على قدميه. بل إن المدعين العامين ورجال الدرك يتباهون منذ حين أنهم توفقوا وحطموا "اتحاد النِّضال".

هذا التباهي كذب بكذب. فإن "اتحاد النِّضال" سليم رغم جميع ا لملاحقات. ونحن نلاحظ بملء الارتياح، أن الاعتقالات بالجملة تؤدي خدمة جلى، وأنها أداة جبارة للتحريض في أوساط العمال وفي أوساط المثقفين الاشتراكيّين، وأنه مقام الثَّوريّين الذين استشهدوا يقوم ثوريون جدد مستعدون للانخراط بقوى طرية في صفوف المناضلين من أجل البروليتاريا الرُّوسية ومن أجل الشعب الرُّوسي كله. وبلا ضحايا، لا يمكن أن يكون ثمة نضال، وعلى اضطهاد الباش بزوقات القيصريين الوحشي، نرد نحن بهدوء: **لقد استشهد الثَّوريّون، عاشت الثَّورة!**

إن تشديد الملاحقات لم يستطع أن يؤول حتى الآن إلا إلى ضعف مؤقت في بعض وظائف "اتحاد النِّضال"، إلى نقص مؤقت إلى العملاء والمحرضين. وهذا النقص بالضبط هو ما يشعر به الآن وما يجبرنا على توجيه نداء إلى جميع العمال الواعين وإلى جميع المثقفين، ممن يرغبون في بذل قواهم في خدمة قضية الثَّورة. إن "اتحاد النِّضال" لفي حاجة إلى العملاء. فلتبلغ جميع الحلقات وجميع الأفراد ممن ترغب ويرغبون في العمل في أي مجال من مجالات النَّشاط الثَّوريّ حتى، ولو كان أضيق مجال، ليبلغوا عن ذلك من لهم صلة مع "اتحاد النِّضال". (وإذا لم تستطع فرقة ما أن تجد أمثال هؤلاء الأفراد – وهذا أمر قليل الاحتمال جداً – ففي وسعها أن تبلغ بواسطة "اتحاد الاشتراكيّين الدِّيموقراطيّين الرُّوس" في الخارج). ينبغي عاملون بشتى

أنواع العمل. **وكلما تخصص الثَّوريّون بمزيد من الصرامة في بعض وظائف النَّشاط الثَّوريّ، وكلما أمعنوا الفكر بمزيد من الصرامة في الأساليب السرية وفي ستر أعمالهم، وكلما انحصروا بمزيد من التفاني ونكران الذات في عمل صغير، جزئي، غير منظور، كلما كان العمل كله أكثر وثوقاً، واكتشاف الثَّوريّين من قبل رجال الدرك والجواسيس أشد صعوبة.** وقد لفت الحكومة مسبقاً بشبكة عملائها، لا البؤر الحالية من العناصر المعادية للحكومة وحسب، بل أيضاً البؤر الممكنة، المحتملة. وبلا وهن تطور الحكومة، سعة وعمقاً، نشاط خدامها الذين يلاحقون الثَّوريّين، وتخترع طرائق جديدة، وتجند استفزازيين جدداً، وتحاول أن تضغط على المعتقلين بالتخويف وتقديم البراهين الكاذبة والتواقيع المزورة ودسّ الأوراق المكتوبة المزيفة، وغيرها من الوسائل المماثلة. فبدون تعزيز وتطوير الطاعة الثَّوريّة، وبدون التنظيم والسرية، يستحيل النِّضال ضد الحكومة. والسرية تتطلب، أول ما تتطلب، تخصص بعض الحلقات والأفراد في وظائف معينة من العمل وتفويض الدَّور الأوحد إلى النواة المركزية "لاتحاد النِّضال" التي هي أقل نواة شأناً من حيث عدد الأعضاء.

إن وظائف العمل الثَّوريّ المنفردة متنوعة إلى ما لا حد له:

ينبغي **محرضون علنيون** يعرفون كيف يتكلمون بين العمال بحيث يستحيل إحالتهم إلى المحاكمة لهذا السبب، يعرفون كيف يتكلمون عن أ فقط، ويعطون الآخرين الكلام عن ب و ج. ينبغي **موزعون للمطبوعات والمناشير**. ينبغي **منظمون لحلقات وفرق العمال**. ينبغي **مراسلون من جميع المصانع والمعامل** يوصلون المعلومات والأخبار عن جميع الأحداث. ينبغي **أناس يراقبون الجواسيس والاستفزازيين**. ينبغي **مدبرون للشقق السرية**. ينبغي **أناس لنقل المطبوعات، لنقل التكليفات، لإقامة الصلة من كل شكل وطراز**. ينبغي **جامعون للأموال**. ينبغي **عملاء في أوساط المثقفين والموظفين ممن هم على تماس بالعمال**، بحياة المعامل والمصانع، بالإدارة (بالبوليس، بتفتيش المعامل ..إلخ). ينبغي **أناس للاتصال مع مختلف مدن روسيا وغيرها من البلدان**. ينبغي **أناس لتدبير مختلف الوسائط من أجل استنساخ شتى المطبوعات بصورة آلية**. ينبغي **أناس للحفاظ على المطبوعات وغيرها من الأشياء**، وهكذا دواليك وهلم جرا. وكلما كان العمل الذي يأخذه على عاتقه فرد بعينه أو فرقة بعينها تفصيلياً، صغيراً، كلما توافر له مزيد من الحظ للقيام بعمله بعد إمعان في الفكر

ولتأمين مزيد من الضمانات له دون الإخفاق، لبحث جميع التفاصيل السرية، ولتطبيق جميع الأساليب الممكنة للإفلات من مراقبة رجال الدرك، ولتضليلهم، كلما كان نجاح القضية أوثق، وكلما صعب على رجال البوليس ورجال الدرك تتبع الثَّوريّ وصلته مع المنظمة، وكلما سهل على الحزب الثَّوريّ أن يستعيض عن العملاء والأعضاء الذين هلكوا، بغيرهم، دون الإضرار بالقضية كلها. ونحن نعرف أن هذا التخصيص أمر صعب جداً، صعب لأنه يتطلب من المرء أكبر ما يكون من رباطة الجأش وأكبر ما يكون من التفاني، يتطلب بذل جميع القوى على عمل غير منظور، وحيد الشكل، عديم الصلة بالرفاق، ويخضع كل حياة الثَّوريّ لقواعد جافة وصارمة. ولكن بهذه الشروط وحدها لا غير أمكن لجهابذة النَّشاط العمليّ الثَّوريّ في روسيا أن يضعوا موضع التنفيذ أجل المشاريع، صارفين سنوات وسنوات على تهيئة القضية من جميع النواحي، ونحن واثقون عميق الثقة بأن الاشتراكيّين – الدِّيموقراطيّين لن يبدو قدراً من التفاني أقل مما أبداه ثوريو الأجيال السابقة. ونحن نعرف كذلك أن النظام الذي نقترح سيجعل من الصعب جداً على الكثيرين ممن يتحرقون إلى بذل قواهم من أجل العمل الثَّوريّ، احتمال تلك المرحلة التحضيرية التي يجمع فيها "اتحاد النِّضال" المعلومات اللازمة عن الأفراد أو الفرق الذين يعرضون جهودهم، ويمتحن فيها قدرتهم أثناء القيام بتكليفات معينة. ولكن، دون هذا الامتحان المسبق، يستحيل النَّشاط الثَّوريّ في روسيا المعاصرة.

ونحن إذ نعرض على رفاقنا الجدد هذا النظام للنشاط، نعرب عن الرأي الذي قادتنا إليه تجربة طويلة، مقتنعين عميق الاقتناع بأن نجاح العمل الثَّوريّ مضمون أكثر في ظل هذا النظام.

حمو خالد